عَظَمَةُ بابل

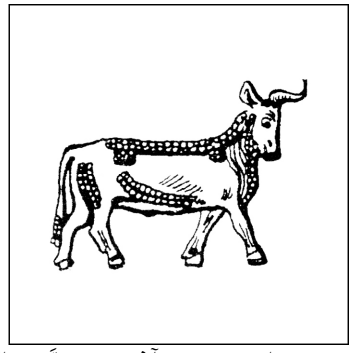

يهوه إني أستخف ساخراً منك
أنا – ملك بابل عدوك

هنريخ هايني بلزاتسار

إن موت آشور غيَّر الموقف في الشرق الأدنى تغييراً جوهرياً فالأقاليم الآشورية السابقة في شمال ميزوبوتاميا وبين النهرين وآسيا الصغرى صارت من دون صاحب، وسكانها الذين أنهكتهم السلسلة «القيد» الآشورية ليس لديهم القوة للدفاع عن حريتهم، وزمن المدن - الدول الصغيرة في الشرق القديم فارق الدنيا فما أن سقطت نينوى حتى بدا الاقتتال على تقسيم «التركة الآشورية» الذي اشترك فيه الأعداء والحلفاء أنفسهم الذين حطموا آشور.

وحتى عان ٦٠٩ ق.م استولى السكيثيون والميديون والبابليون على كل ميزوبوتاميا الشمالية وفي الوقت ذاته وضع المصريون يدهم على ما وراء النهر «المقاطعات الواقعة غربي النهر» وتراجع الفرعون نخو الذي فشل عند حران إلى ما وراء النهر مقيماً قيادته في ربلة بالقرب من حماه[أ]. في مركز ما وراء النهر بالذات.

وبدّل بالحاميات المصرية الآشوريين الذين استولوا على مدن وقلاع بلاد الملك اليهودي يوآحاز خليفة يوشيا المقتول عند مجيدو الذي تجاسر على عصيان أمر فرعون العنيف وجاء إلى ربلة وأرسله نخو إلى الأسر وأجلس أخاه الياقيم على عرش يهوذا وفرض عليه جزية ١٠٠ تالنت - وزنة من الفضة «نحو ثلاثة آلاف وست مئة كيلوغرام» وتالنت وزنة من الذهب «نحو ٣٦ كيلوغرام» بالسنة.

أ- هي أقرب بكثير إلى حمص من حماه بالشمال - المترجم

obeikandl.com

وصار على البابليين أن يسترجعوا بالسلاح منطقة ما وراء النهر التي هي حصتهم من «التركة الآشورية» من المصريين. ولكن في بادئ الأمر كان عليهم أن يؤدوا واجب الحليف للسكيثيين.

فمن نهاية عام ٦٠٩ ق.م حتى شهر آب عام ٦٠٧ ق.م سحق الجيش البابلي بقيادة نابو بلاسر وابنه نبوخذ نصر سوية مع السكيثيين والميديين اورارتو وماني حلفاء آشور السابقين وهذه البلاد صارت من حصة السكيثيين من «التركة الآشورية» وفرض عليها السكيثيون الجزية ولكن لم يحرموها من الحكم الذاتي. وأقام السكيثيون لهم حاميات في عدة مدن وقلاع وخاصة في منطقة تيشيباني الأورارتية «حالياً أطلال كارمير - بلور بارمينيا»[1] وفقط في شهر تشرين أول عام ٦٠٧ ق.م استطاع نابو بلاسر في النهاية أن يقود الجيش البابلي ضد المصريين وبدأ صراع عنيف من أجل المعابر على الفرات استمر حتى ربيع عام ٦٠٥ ق.م.

وأول تحصينات جسرية أولية أقامها نابو بلاسر في شهر كانوا الأول عام ٦٠٧ ق.م كانت عند مدينة كيموخ على الفرات وفي صيف عام ٦٠٦ ق.م قضي على المصريين بعد معارك عنيفة. ولكن في خريف العام نفسه أقام البابليون رأس الجسر الثاني في منطقة معسكر شونياديري - الآمو - داخامو. وباءت بالفشل جميع محاولات المصريين لقذفهم بالنهر هذه المرة وحانت ساعة المعركة الحاسمة من أجل ما وراء النهر.

وقام الجيش البابلي في ربيع عام ٦٠٥ ق.م بحملة ولم يستطع نابو بلاسر الشيخ المريض قيادتها فسلّم القيادة لابنه نبوخذ نصر.

وتوجه الفرعون المصري نخو أيضاً إلى الفرات بالقوة الرئيسة لجيشه الذي كان في قوامه المرتزقة النوبيين واللوتشافيين واليونانيين إلى جانب المصريين والليبيين والتقى الأعداء عند أسوار كركميش[أ] هذه المدينة المحصنة بقوة على الضفة اليمنى لنهر الفرات والتي تعتبر مفتاحاً إلى المعابر النهرية الرئيسة والطرق إلى عمق سورية. وبالاستيلاء على كركميش سدَّ المصريون الطريق على البابليين إلى ما وراء النهر وهنا نشبت في نهاية أيار عام ٦٠٥ ق.م واحدة من أكبر المواقع في تاريخ الشرق القديم.

فاقتحم البابليون الفرات جنوبي كركميش وهاجموا معسكر المصريين قرب أسوار المدينة وفي قتال عنيف بالسلاح الأبيض حطموا مقاومة جنود الفرعون واندفعوا على أكتافهم إلى داخل كركميش واحتدمت في الشوارع معارك دامية

أ- جرابلس حالياً - المترجم

ونشبت الحرائق التي أجبرت المصريين على الخروج مرة أخرى إلى الميدان حيث أكمل البابليون تحطيمهم وولت فلول الجيش المصري مذعورة إلى حماة وهنا أدركهم المنتصرون وأبادوهم وبلغت خسائر المصريين عشرات الآلاف من الرجال وبضربة واحدة طرد البابليون المصريين من آسيا وربحوا الحملة، وكانت الدول الصغيرة الموالية في سورية وفينيقيا وفلسطين مصعوقة بسحق الفرعون ولم تقاوم نبوخذ نصر.

وسارعت لافتداء نفسها منه بالهدايا والرهائن وهكذا فعل اليهود عندما اقترب البابليون من أورشليم فأرسل له الملك الياقيم «يهوياقيم» قسماً من آنية معبد أورشليم وسلم أبناء اليهود والأشراف كرهائن والذين كان من بينهم مستقبلاً النبي دانيال.

وفي معمعان الحملة توفي نابو بلاسر في ١٥ آب عام ٦٠٥ ق.م في بابل واستولى الوجهاء الأكاديون على القصر الملكي وبعد ذلك أخبروا بواسطة البرق «التلغراف» الناري[أ] نبوخذ نصر الموجود في ما وراء النهر بذلك فأوقف الحملة على الفور آمراً قادته العسكريين بالعودة مع الجيش الرئيس والغنائم والأسرى إلى الوطن وأسرع هو نفسه برفقة حاشية صغيرة بالعودة بأقصر الطرق عبر الصحراء إلى بابل وفي ٧ أيلول من عام ٦٠٥ ق.م وبعد ٢٣ يوماً على وفاة والده تولى نبوخذ نصر العرش الملكي.

وليس عبثاً أسرع نبوخذ نصر إلى بابل فالزعماء البابليون بدورهم فقط عندما صاروا في حالة لا مخرج منها وافقوا على مضضٍ على الاعتراف بنبوخذ نصر ملكاً، والآن لم يكونوا ميالين لاعتبار نبوخذ نصر خليفة شرعياً فقط على أساس أنه الابن الأكبر للملك لأن الاوليجاركيين[ب] «الطغمة الحاكمة» البابليين ضد السلطة الملكية الوراثية غير أنهم اصطدموا هنا بالضباط الكلدانيين العسكريتاريا الكلدانية التي رغبت في أن ترى على العرش البابلي فقط كلدانياً وفقط نبوخذ نصر.

وحضر نبوخذ نصر بالوقت المناسب ولم يتجاسر الاوليجاركيون على معارضة حقه وجلس نبوخذ نصر على العرش مدعوماً بالمآثر الحربية ومساندة الجيش وشهرة المنتصر عند كركميش واعترفت به كل البلاد ملكاً.

وعاد نبوخذ نصر في خريف عام ٦٠٥ ق.م إلى ما وراء النهر وتابع الحملة ثم رجع في شباط سنة ٦٠٤ ق.م «بجزية باهظة» من بلاد خاتو «يعني ما وراء النهر».

أ- الاتصال بواسطة النار ليلاً والدخان نهاراً - المترجم

ب- Oligarchy = الاوليجاركية أ- حكم القلة. ب- حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية. ج - منظمة خاضعة لسلطة أوليجاركية أو جماعة تمارس هذه السلطة - المترجم.

واحتفل نبوخذ نصر في نيسان عام ٦٠٤ ق.م بالسنة الجديدة في بابل - السنة الأولى لحكمه - وفي حزيران تحرك على رأس الجيش إلى ما وراء النهر حيث بقي حتى شباط عام ٦٠٣ ق.م وبأمل الحصول على غنيمة سهلة جاء معه حلفاؤه والزعماء السكيثيون إلى ما وراء النهر.

وفهم نبوخذ نصر أن الدوائر التي تجلس على سدة السلطة في الدول الخاضعة فيما وراء النهر ميولها إلى جانب المصريين ولا تريد استبدال السيادة المصرية السهلة نسبياً بالسيطرة البابلية، وفهم أيضاً أن هذه الدوائر ستقاوم البابليين بعنف. حالما يصحون من الصدمة التي سببها تحطيم المصريين عند كركميش. وهذا ما حدث!

وأول من تجرأ على حمل السلاح ضد البابليين كان مدينة أشقلون «عسقلان» الفلسطينية التي اتكلت على مساعدة المصريين واتخذت على عاتقها تلقي صدمة القوات البابلية والسكيثية وأخذ آدون ملك عسقلان لما اعتدى الأعداء على ممتلكاته ووصلوا إلى آفيق «على مسافة ١٥ كم من اللد» يطلب من الفرعون المساعدة الفورية ولكن المصريين لم يأتوا. وفي كانون الأول عام ٦٠٤ ق.م استولى نبوخذ نصر على عسقلان وتعرضت المدينة للنهب والتخريب وسيق الملك آدون والأشراف والمواطنون الناجون والحرفيون والبحارة إلى الأسر البابلي وسلب السكيثيون أثناء ذلك ذخائر - كنوز» معبد الآلهة عشتار العسقلاني وأذهل نبأ سقوط عسقلان كل ما وراء النهر وبخاصة يهوذا المجاورة الدولة الأقوى في الدول السورية - الفلسطينية.

وقام على رأس السلطة في يهوذا أوليجاركية ذات نزعة مواليه لمصر وعلى رأسها الملك يهوياقيم. ومنذ عهد الملك يوشيا في عام ٦٢١ ق.م اتخذت مجموعة القوانين التي تعرف باسم «تثنية الاشتراع» التي كانت تعزز صفوف التابعية اليهودية ومنها خاصة العدد التالي «إذا بيع لك أخوك العبراني أو أختك العبرانية وخدمك ست سنين ففي السنة السابعة تطلقه حراً من عندك. وحين تطلقه حراً من عندك لا تطلقه فارغاً، تزوده من غنمك ومن بيدرك ومن معصرتك كما باركك الرب إلهك تعطيه»[2].

ولكن الاوليجاركيين خالفوا الشريعة بفظاظة وفي يهوذا استمرت العبودية الطويلة بالازدهار مفجرة قوى الشعب فقامت الطبقة الديمقراطية في المجتمع اليهودي ضد تسلط الاوليجاركية وسياستها الخارجية المعادية لبابل. وصار النبي أرميا المعبر عن آمالهم.

ففي عصر النبوة سموا الشخص الذي تجرأ على أن يخطب ويعلم الناس نبياً. فهو لم يكن عرّافاً بالمستقبل كما هو معروف الآن، فالعرافة في الشرق القديم مارسها الكهنة والعرافون الذين لم يمت لهم الأنبياء بأي صلة من الصلات. فالنبي تكلم متوجهاً إلى الناس عما شاهدوه من حولهم وعما أزعجهم. فالنبوّات كقاعدة عبارة عن الخطابات الحماسية المفعمة بالقوة حول المطالب الاجتماعية السياسية التي تشكل

نموذجاً فذاً للفصاحة، وكان الأنبياء شخصيات سياسية معبرة عن مصالح وآراء أوساط معينة في المجتمع.

وهكذا وصلت إلى أورشليم الأنباء عن سقوط عسقلان «اشقلون» فنادوا للصوم في المدينة التي عمها القلق وفي هذا الوقت المنذر بالخطر ظهر النبي أرميا.

لقد تنبأ بعدوان نبوخذ نصر والسكيثيين، وأملى سلفاً على كاتبه باروخ نداءً على الشعب اليهودي قال فيه بالمناسبة:

«مجيئاً يجيء ملك بابل ويهلك هذه الأرض ويلاشي منها الإنسان والحيوان».

ولما اجتمع في أورشليم عدد عظيم من سكان الأرياف المذعورين قرأ باروخ نداء أرميا على الجمهور المجتمع أمام هيكل الإله يهوه فاعتقلوا باروخ وأرسلوه إلى القصر. وهناك قرأ النداء مرة أخرى، وفي هذه المرة كان الكثير من أعضاء مجلس الدولة خائفين فأُخذ الملف مع النداء من باروخ وأشاروا عليه أن يختبئ هو وأرميا ولا يعلم إنسان أين هما وأخبر المستشارون الملك يهوياقيم عن كل شيء واستمع الملك بكآبة لكلمات النبوءة وبعدما قرؤوا له بعضاً من النداء شقه بمبراة الكاتب وألقاه في الكانون «المجمرة» الموضوع أمامه ثم أمر بالقبض على النبي وباروخ ولكنهما صارا أثراً بعد عين.

وتحققت نبوءة أرميا. ففي أيار عام ٦٠٣ ق.م قام نبوخذ نصر من جديد بحملة واضعاً نصب عينيه إخضاع دولة يهوذا، وحمل البابليون معهم أدوات الحصار المخصصة للاستيلاء على أورشليم وخضع يهوياقيم «يوياقيم» ولم ينتظر حتى الحصار وأجبر على دفع الجزية إلى بابل وأكمل نبوخذ نصر في عام ٦٠٢ ق.م إخضاع ما وراء النهر إلا أن السيادة البابلية على ما وراء النهر لا يمكن أن تكون ثابتة ما لم تُسحق مصر.

وفي عام ٦٠١ ق.م ظهر نبوخذ نصر مع الجيش كالعادة في ما وراء النهر وجمع الجزية وبعد ذلك وصلته المفارز السكيثية الحليفة وتحرك بشهر كانون الأول إلى مصر ولكن الفرعون نخو نجح بالاستعداد للمجابهة وأوقف المصريون العدو بعد معركة ضارية وبدأ نبوخذ نصر بالانسحاب والعودة إلى بابل.

وكانت خسائر البابليين ولا سيما بالفرسان والمركبات عظيمة لدرجة أن نبوخذ نصر احتاج إلى عشرين شهراً حتى استطاع قبل كل شيء أن يستعيد القدرة القتالية لجيشه.

ولكن انتصار مصر كلف أيضاً مثل هذا الثمن الغالي بحيث أن الفرعون نخو أقلع نهائياً عن التفكير بخوض الحرب في السنوات القريبة القادمة مع بابل من أجل الأقاليم الآسيوية وأدى فشل نبوخذ نصر إلى تصاعد الحركة المضادة لبابل في ما وراء النهر. وتوقفت يهوذا عن دفع الجزية لبابل وأقنع أنبياء الحزب المناهض لبابل الشعب «هو ذا الأنبياء يقولون لهم لا ترون سيفاً ولا يكون لكم جوع بل سلاماً ثابتاً أعطيكم في هذا الموضع».

واستمر التأكيد على العودة لمطاردة أرميا حتى أن مواطنيه من قرية عناثوث[أ] اتفقوا على ضرورة إنذاره «لا تتنبأ باسم الرب فلا تموت بيدنا».

ومرة أخرى ظهر أرميا أنه على حق ففي كانون الأول من عام ٥٩٩ ق.م ظهرت طلائع البابليين في ما وراء النهر وقرر نبوخذ نصر سحق مملكة يهوذا واستمر البابليون وعملاؤهم عاماً كاملاً يخربون الأرض اليهودية وفي النهاية في الأيام الأخيرة من كانون الأول عام ٥٩٨ ق.م خرج نبوخذ نصر من بابل مع القوى الرئيسة وخلال شهر بنهاية كانون الثاني من عام ٥٩٧ ق.م وصل إلى أورشليم.

ولم يجرؤ يوياقيم على المقاومة وجاء بالهدايا إلى نبوخذ نصر غير أن هذا أمر بتقييده بالسلاسل وإرساله إلى بابل وبعد ذلك غير نبوخذ نصر رأيه وقتل يوياقيم والمقربين إليه وألقيت جثثهم دون دفن عند بوابة أورشليم.

وأجلس نبوخذ نصر يهوياكين بن يوياقيم وعمره ثمانية عشر عاماً على عرش يهوذا وسيق ٣٠٢٣ من عظماء اليهودية إلى الأسر.

واقترب الجيش البابلي مرة أخرى من أورشليم ورأى يهوياكين أن المقاومة عديمة الجدوى وسلم المدينة دون حرب في شهر آذار عام ٥٩٧ ق.م وساق نبوخذ نصر إلى الأسر الملك نفسه مع كل عائلته ونحو ٧٠٠٠ من المحاربين الأشداء وعشرة آلاف من الحرفيين، واستولى البابليون على جميع ما في خزائن القصر وهيكل أورشليم بمثابة غنائم وحدث ذلك في بداية نيسان عام ٥٩٧ ق.م بعد ثلاثة أشهر وعشرة أيام من حكم يهوياكين.

وهكذا في عام ٥٩٧ ق.م بدأ «السبي البابلي» المشهور للشعب اليهودي ووصل العدد الإجمالي للأسرى إلى ١٠٠٠٠ عشرة آلاف أسير باستثناء أهل بيوتهم «عائلاتهم» المساقين معهم. وكان هؤلاء خيرة الشعب اليهودي والطبقة الاجتماعية الأكثر نشاطاً ولكن بقي قسم من الشعب اليهودي في الوطن. وأبقى نبوخذ نصر على الحكم الذاتي ليهوذا. وعين صدقيا الابن الأصغر للملك يوشيا وعم يهوياكين ملكاً عليها وفرض الجزية على اليهود وأخذ عهداً من صدقيا أن يحافظ على الولاء لبابل ولا يدخل في علاقات مع مصر.[3]

وصارت الأرض والممتلكات الأخرى لليهود المساقين إلى الأسر بأيدي «فقراء شعب الأرض» الباقين في اليهودية ولم يستطع الأسرى الموجودون في بابل طويلاً أن يرضوا بذلك واعتبروا أنفسهم فقط إسرائيليين حقيقيين وملكهم الشرعي هو صدقيا المتعب في الغياهب البابلية ونظروا إلى اليهود الباقين في الوطن باحتقار إذ أطلقوا عليهم اسم «التين الرديء جداً» وسموا أنفسهم «التين الجيد جيداً».

أ- عناثوث: هي مسقط رأي النبي أرميا، وهي الآن قرية صغيرة قليلة السكان على بعد ميلين ونصف من القدس اسمها عناتا وقد زالت حصونها وأهميتها -المترجم.

وبقيت مصر متفرجاً غير مهتم بالتنكيل الذي وقع باليهودية والحرب من أجل «التركة الآشورية» انتهت وصارت بابل سيدة على كامل سورية وفلسطين وفينيقيا وخيَّمَ التوقف على المنافسة البابلية - المصرية.

وكان انتباه نبوخذ نصر والبابليين مشدوداً في هذه السنوات إلى التهديد السكيثي حيث رقدت عند أقدام هؤلاء الرحل الهمج كل من ميديا وأورارتو وماني وآشور وما وراء النهر وآسيا الصغرى المنهوبة منهم. فقط مصر وبابل أغنى دول الشرق الأدنى تجنبت هذا المصير وكانت مصر بعيدة جداً وصعبة المنال وها هي الأنظار النهمة للسهبيين قد تحولت إلى بابل التي تعتبر حتى الآن حليفتهم.

سيف آشوري من تل سكيثي عند قرية [«ستانيتسا» قوزاقية كبيرة] يليرسكوى في الكوبان

وفي السنوات «٥٩٧-٥٩٥ ق.م» خيم خطر العدوان السكيثي الرهيب فوق بابل وجرت على الحدود اشتباكات مستمرة واخترقت مفارز البرابرة حتى سورية وبابل وانهالوا بسهامهم الصافرة في الجو عليها وأخذت الزراعة التي هي أساس الحياة في البلاد بالتدهور. وكان كثير من البابليين معزولين عن أصحابهم فواحد موجود في الخدمة العسكرية والآخرون خائفون من العمل في الحقل بسبب السكيثيين ومختبئون خلف أسوار المدن.

وارتفع سعر الشعير والبلح «التمر» إلى شاقل واحد «٤.٨ غ» من الفضة لكل ٢ سوتو «١٠ ليتر» وهذا يعني أعلى بـ ١٥ مرة عن السعر العادي.[4]

وتحرك نبوخذ نصر سريعاً وهو مشغول البال بالدفاع عن البلاد بين كركميش «جرابلس» ووادي الدجلة.

وحشد السكيث القوى للاعتداء على بابل طالبين قوات مساعدة من مواليهم أورارتو وماني وميديا، وفي بابل تتبعوا بهلع الإعصار القادم والعدد الكبير من الأسرى بما فيهم اليهود توقعوا على ما يبدو موت بابل بصورة حتمية فمن جهة اشتاقوا إلى الانتقام من مستعبديهم ومن جهة أخرى خافوا من أن الإعصار السكيثي سيجرفهم هم والبابليين معاً، ولكن الكأس المر عَبرَ بابل وجاء الخلاص على حين غرة، ففي عام ٥٩٤/٥٩٥ ق.م في ذروة استعداد السكيث للعدوان على بابل استدرج

الملك الميدي كياكسار القادة السكيثيين مع حاشيتهم إليه في بير ولما فقد الضيوف كل الانتباه وسكروا غاية السكر قتلهم الميديون وبفقدانهم القيادة تكبد السكيثون خسارة قاسية.

وسيادتهم على آسيا الغربية «الدنيا» التي استمرت ثمانية وعشرين عاماً وصلت إلى النهاية فهي سقطت هكذا فجأة كما قامت. وهرب السكيثيون الذين سحقهم الميديون إلى ما وراء سلسلة جبال القوقاز إلى وطنهم في السهوب الساحلية للبحر الأسود ومضت القرون وها هم علماء الآثار قد وجدوا في سهوب أوكرانيا والكوبان أثناء التنقيبات في تلال القبور السكيثية كنوز ميلغونوفسكي وكيليرمسكي وغيرها من الكنوز المشهورة المؤلفة من الموجودات القبرية للقادة المدفونين تحت هذه التلال، ومن بين اللقى ظهرت أشياء ثمينة من مصدر أسيوي ومنها سيف آشوري ذو نصل ذهبي ومقبض ذهبي لعله كان في غابر الأزمان ملكاً لآشور بانيبال نفسه ملك آشور العظيم الأخير، والسيف الآشوري هذا وكثير من الأشياء الأخرى محفوظة الآن في الآرميتاج ومتاحف الاتحاد السوفيتي الأخرى. وبقايا الكنوز هذه هي من منهوبات السكيثيين من نينوى وحران وعسقلان وبقية مدن آسيا الدنيا وهي في الوقت نفسه شواهد صامتة على الحملات الأسطورية والعظمة السريعة الزوال.

ودعا سقوط السيادة السكيثية شعوب آسيا الدنيا إلى التنفس براحة «بحرية».

ولكن كما هو معروف خَلَّفَ السكيثيون للجيران القريبين السراء والضراء «بتركة» على شكل أراضٍ واسعة كانت تحت سلطتهم، وللحال وُجِدَ لهذه الأراضي أدعياء سرعان ما اندلعت فيما بينهم الحرب التي شملت الشرق الأدنى كله حاملة معها الآلام لسكانها المتعبين للغاية.

وكان الميديون أول المدعين فعلاً «بالتركة السكيثية» وأسرعوا بالاستيلاء على آشور من خرائب نينوى إلى كلخ «كالح» وأربيل وسقطت تحت ضرباتهم ماني وأورارتو ذات الحكم الذاتي تحت الحكم السكيثي وفي هذا الوقت بالذات خرب الميديون العاصمة الأورارتية توشبو «وان الحالية» وكذلك قلعة تيشيباني «أطلال كارمير - بلور» التي دافعت عنها، كما دلت التنقيبات، حامية سكيثية.

واستولت بابل حليفة ميديا على الأراضي المجاورة في شمال ميزوبوتاميا وهي أقاليم نصيبين - روتساب - آشور - غوتيوم «في وادي ديالي» كما استولى البابليون أيضاً على سوز والقسم الغربي من عيلام أما في شرق عيلام في انشان استحكم الفرس الموالين لميديا.

وفي عام ٥٩٤ ق.م توفي الفرعون المصري نخو وفي الحال بدأ خليفته بسماتيك الثاني «٥٩٤-٥٨٨ ق.م» بالاستعداد لحرب كبيرة مع بابل ونشط العملاء في ما وراء النهر. واجتمع في عام ٥٩٤ ق.م بأورشليم سراً سفراء دول موآب وآدوم وعمون وصور وصيدا للتفاوض مع الملك اليهودي صدقيا حول الخروج المشترك «الثورة» ضد بابل وتبع ذلك ذهاب السفير اليهودي إلى مصر لطلب المساعدة من فرعون.

وكان الملك صدقيا الملزم بالعرش من قبل نبوخذ نصر في قرارة نفسه ضد الحرب وغير واثق من نتيجتها المواتية. ولكن كونه شخصاً متردداً لم يستطع الحؤول دون تنامي الشعور المعادي للبابليين في أوساط المواطنين اليهود الناجين من السبي.

ودعا عدد كبير من الأنبياء إلى الثورة علناً وأصوات القليل من متبصري الشخصيات السياسية تناغمت مع هذه الجوقة وجرى في أيلول عام ٥٩٣ ق.م في أورشليم باجتماع شعبي جدال حول مسائل السياسة الخارجية بين النبيين أرميا وحنانيا فتكلم حنانيا قارعاً صدره بيده مطمئناً الحاضرين أنه لن تمر سنتان إلا ويسقط النير البابلي ويرد إلى أورشليم الملك يكنيا مع كل سبي يهوذا وكل آنية بيت الرب. فعلق أرميا ساخراً وقال إن الأنبياء الذين كانوا قبلي وقبلك منذ القديم تنبؤوا على أراضٍ كثيرة وعلى ممالك عظيمة بالحرب والشر والوباء ولكن قطعاً لم يتحدثوا عن السلام فأخذ حنانيا المحتدم غيظاً النير عن عنق النبي أرميا وكسره وأعلن أمام الجماهير المستحسنة الغيورة قائلاً هكذا قال الرب: هكذا أكسر نير نبوخذ نصر ملك بابل في سنتين من الزمان عن عنق كل الشعوب وانطلق أرميا في سبيله.

وعم القلق اليهود المسبيين في بابل فهنا أيضاً تنبأ الأنبياء والعرافون والسحرة بحلول النهاية السريعة للسبي وردت السلطات البابلية بالاضطهاد وشوي اثنان من هؤلاء الأنبياء آحاز وصدقيا أحياءً على نار هادئة بأمر من نبوخذ نصر.

وبالدعاية حاول المتعصبون منازعة النبي حزقيال الأرستقراطي اليهودي مستقبلاً فهو يحمل الكراهية إلى الملك صدقيا ومحيطه في أورشليم غير أن حزقيال الذي وعى الأسباب التي أوصلت اليهودية عام ٥٩٧ ق.م لا يوفر وصماً للزعماء اليهود لعبادتهم الأصنام والتعامل بالربا واضطهاد الفقراء والتغرب «الابتعاد» عن اليهودية واستنكر توجههم نحو مصر بالسياسة الخارجية وحادثة إرسال الملك صدقيا لسفيرِهِ إلى مصر نفسها سماها حزقيال «الحنث باليمين» الذي لن يصفح عنه نبوخذ نصر.

وفي سنة ٥٩١ ق.م جاء الفرعون بمساتيك على رأس الأسطول وبرفقته مجموعة الكهنة - مجلس الكهنة» إلى مدينة جبيل[5] وكان هذا استفزازاً مباشراً ضد بابل التي تقع فينقيا تحت حكمها وعرض فرعون القدرة الحربية البحرية المصرية لسكان ما وراء النهر مشجعاً إياهم على الثورة.

واندلعت حرب كبيرة في عام ٥٩٠ ق.م وكان الدافع إليها الأحداث التي يتحدث عنها هيرودوت هكذا: اعتزلت مفرزة من السكيثيين الرحل بسبب الاضطهاد إلى أرض ميديا في الوقت الذي كان يحكم فيه كياكسار ابن فراورت وحفيد دايوك الذي قبل هؤلاء السكيث من قبيل العطف كطالبي حماية وحتى قدرهم عالياً وأوكل إليهم تعليم الصبيان لغتهم والرمي بالقوس وهكذا بعد مضي بعض الوقت حيث كان السكيثيون يمارسون الصيد ويجلبون معهم دوماً شيئاً ما إلى البيت وذات يوم لم يأتوا بشيء وعادوا فارغي اليدين.

وكما يبدو أن كياكسار السريع الغضب تصرف معهم بشكل مهين ولما اعتبروا أنفسهم أنهم لا يستحقون مثل هذه الإهانة من جانب كياكسار قرر الكسيثيون ذبح أحد الصبيان الميديين الذين يتعلمون عندهم وحضروه كما يحضرون الطريدة عادة وحملوه إلى كياكسار بشكل قنيص صيد وارتحلوا على عجل إلى آلياتا ابن سادياتا من ساردي «يعني إلى ملك ليديا» وهكذا صار فأكل كياكسار وضيوفه لحم الصبي. والسكيث الذين فعلوا ذلك التمسوا الحماية من آلياتا. وفي غضون ذلك لم يسلم آلياتا السكيثيين بناء على طلب كياكسار وبسبب ذلك بدأت الحرب بين الليديين والميديين التي استمرت ٥ سنوات.[6]

وهنا من الصعب تحديد أين ينتهي الواقع هنا وأين يبدأ الخيال. نعم لا ضرورة لهذا هنا لأن هيرودوت يتكلم!

لقد كان المعاصرون على حق عندما قالوا إن الحرب بدأت بسبب السكيثيين لأن كياكسار طلب من ليديا تسليم السكيثيين اللاجئين إلى أراضيها وبالطبع التنازل عن ذلك الجزء من «التركة السكيثية» الذي نجح الليديون بالاستيلاء عليه.

وحالاً بعد هذا في خريف عام ٥٨٩ ق.م وبإشارة من مصر الداخلة في تحالف مع ليديا قام اليهود بثورة وفهموا في أورشليم أن الحرب مع بابل لن تكون هينة، واستعداداً لها قطع الملك صدقيا وجميع الشعب عهداً بالالتزام بدقة بـ «تثنية الاشتراع» وتحرير جميع العبيد اليهود وعدم استعبادهم من الآن فصاعداً وهذا القرار تم تنفيذه.

ولم يجبر نبوخذ نصر نفسه على الانتظار وسرعان ما ظهر على رأس الجيش عند الحدود اليهودية والدول الصغيرة الحليفة الأخرى لم تتجاسر على الانضمام للثورة وبطلب من نبوخذ نصر سحبوا مفارزهم المساعدة وآدوم ألجار الجنوبي والعدو الأزلي ليهوذا دعمت بابل بحمية خاصة وأصبحت يهوذا في عزلة.

وخرب البابليون أراضيها وحاصروا أورشليم وكذلك مدينة لخيش وعزيقة حيث أنزلت فيها حاميات يهودية.

وبدأ حصار أورشليم في ١٥ كانون الثاني عام ٥٨٨ ق.م وبعد ٢٨ يوماً أي في ٨ شباط من عام ٥٨٨ ق.م بعد العودة من حملة في بلاد النوبة بقليل مات الفرعون بمساتيك الثاني وجلس على عرش مصر ابنه إبرى «اب - رع» الذي بر بوعد والده لليهود وتحرك بجيشه وأسطوله إلى آسيا وعندما علم نبوخذ نصر بهجوم المصريين تراجع عن أورشليم وتكبد المصريون الهزيمة في البر. أما في البحر فأحرزوا النصر على أسطول مدينة صور الفينيقية الذي أرسله نبوخذ نصر إلى المعركة وفي الواقع لم يرد البحارة الفينيقيون الحرب مع المصريين لصالح بابل. فقد كانت بابل بالنسبة للفينيقيين تعتبر مضطهدة أما مصر فقد ارتبطوا معها من قديم بعلاقات اقتصادية وسياسية ودينية وثقافية متينة وخدم في الأسطول المصري كثير من المرتزقة الفينيقيين.

وبعد الانتصار في البحر احتل المصريون فينيقيا وعزموا جدياً على الاستقرار هناك ولمدة طويلة. ففي جبيل مثلاً بنوا ثكناتهم ومعبد للآلهة المحلية، وهز التغلغل المصري في فينيقيا جدياً السيادة البابلية في ما وراء النهر، فثارت دمشق وحدثت محاولات تمرد في حماة وأرباد، وزد على ذلك أن «جوج ومأجوج» كما سمي الليديون في الكتاب المقدس وحلفاء مصر الذين خاضوا الحرب مع الميديين حلفاء بابل اعتدوا أكثر من مرة على سورية من الشمال، وأخذ نبوخذ نصر يبذل كثيراً من الجهد والوقت لكي يستعيد السيطرة على ما وراء النهر.

وفي غضون ذلك ابتهج الزعماء اليهود الذين بدؤوا بالثورة وتأكدوا من النصر، وفي هذه الحالة نكثوا على الفور بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم في بداية الحرب، فالأغنياء والمرابون عادوا ودنسوا اسمي وارجع كل واحد عبده وكل واحد أمته الذين أطلقوهم أحراراً لأنفسهم وأخضعوهم ليكونوا لهم عبيداً وإماء. «وَلَكِنَّهُمْ عَادُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْجَعُوا الْعَبِيدَ وَالإِمَاءَ الَّذِينَ أَطْلَقُوهُمْ أَحْرَاراً وَأَخْضَعُوهُمْ عَبِيداً وَإِمَاءً» (أرميا ٣٤: ١١).

فالنبي أرميا يشجب بعنف سواء الثورة نفسها أو سلوك الزعماء اليهود ولم يشك في أن الأمر سينتهي بكارثة. وعندما خالف العسكريون المحيطون بالملك صدقيا الرأي معه توجه إلى أرميا بواسطة أشخاص مخلصين «للمشورة»: «لاَ تَخْدَعُوا أَنْفُسَكُمْ قَائِلِينَ إِنَّ الْكِلْدَانِيِّينَ سَيَذْهَبُونَ عَنَّا لأَنَّهُمْ لاَ يَذْهَبُونَ. لأَنَّكُمْ وَإِنْ ضَرَبْتُمْ كُلَّ جَيْشِ الْكِلْدَانِيِّينَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَكُمْ وَبَقِيَ مِنْهُمْ رِجَالٌ قَدْ طُعِنُوا فَإِنَّهُمْ يَقُومُونَ كُلُّ وَاحِدٍ فِي خَيْمَتِهِ وَيُحْرِقُونَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ»[أ]. (أرميا ٣٧:٩-١٠).

لقد حاول أرميا ترك أورشليم ولكنهم مسكوه بجرم النية بالهرب إلى الكلدانيين فضربوه وألقوه في السجن، وأنقذ الملك صدقيا أرميا الذي أخرجه من السجن وخبأه في دار حرسه.

وظهر البابليون في صيف عام ٥٨٧ ق.م مرة أخرى حول أسوار أورشليم، وكانت أورشليم إحدى أقوى القلاع في الشرق القديم وحتى ذلك التاريخ لم يستطع أي جيش من الجيوش أن يستولي عليها بالاقتحام بما في ذلك جحافل الملك الآشوري أسرحدون التي فشلت هنا في عام ٧٠١ ق.م وخلافاً للسنوات «٥٩٨-٥٩٧ ق.م» استعد اليهود بدقة للحرب وكانوا مليئي العزم على القتال حتى النفس الأخير وأخذ البابليون يحاصرون أورشليم بعنف ورفعوا متاريس الحصار والأبراج بمستوى تحصينات المدينة مقربين الأكباش إلى الأسوار والبوبات ودافع اليهود بثبات خارق للعادة وأقاموا حواجز من بيوت المدينة المهدمة لهذا الغرض بما فيها البيوت الملكية في الأماكن التي عمل بها العدو ثغرات في الأسوار. وتكبد البابليون خسائر كبيرة في

أ- أي أورشليم.

صد الهجمات المفاجئة للمحاصرين المستمرة. وانضمت الآلام والجوع إلى ضائقات الحصار. وأدى نفاذ احتياطي القمح من المدينة ونقص المؤن وازدحام السكان إلى انتشار الإصابة بالأوبئة وجرت في شوارع أورشليم مشاهد مرعبة فالشيوخ جلسوا على الأرض ساكنين متمنطقين بالمسوح ويذرون الرماد على رؤوسهم علامة الحزن، وجف حليب الأمهات، والأطفال غشي عليهم من الجوع (تضرع الأطفال من أجل الخبز) دون أن يعطيهم أحد، وماتوا من الجوع مباشرة في الشوارع والأمهات غشيت عقولهن من الآلام وقتلوا وأكلوا مواليدهم «أطفالهم الصغار» حتى أمراء اليهود الذين كانوا في غابر الأيام «الثلج النقي» والحليب الأبيض الأجمل من المرجان والياقوت الأزرق اسودّوا وصاروا لا يعترف بهم، التصقت جلودهم بعظامهم وجفوا كالخشب، والذين ماتوا بالسيف كانوا أسعد ممن ماتوا جوعاً، ولكن أورشليم صمدت ولم ينطفئ فيها ضوء الأمل بالمصريين، ولكن كان ذلك بلا جدوى «أيدي النساء الحنائن طبخت أولادهن، كان نذرها «أنقى من الثلج» وأكثر بياضاً من اللبن وأجسامهم أشد حمرة من المرجان جرزهم كالياقوت الأزرق، صارت صورتهم أشد ظلاماً من السواد - لم يعرفوا في الشوارع ولصق جلدهم بعظمهم وصار يابساً كالخشب. كان قتلى السيف خير من قتلى الجوع، أما نحن كلّت أعيننا من النظر إلى عوننا الباطل في برجنا انتظرنا أمة لا تخلّص - مراثي أرميا»[7].

هتف أحد المدافعين عن أورشليم من أبراج حراستنا انتظرنا الشعب الذي لا يستطيع أن يخلصنا ولا سيما أن رؤساء اليهود الذين يمسكون الملك صدقيا بأيدهم خاصة تشبثوا بعناد بعدم تسليم المدينة وأدركوا أن البابليين لن يرحموهم، ومقابل هذا زاد عدد الفارين من بين أوساط اليهود الأدنى مرتبة لأنهم لم يريدوا الهلاك بحكم أصحاب الأمر والنهي ورد هؤلاء بالتنكيل ضد جميع الساخطين والمتذمرين ولم ينجُ حتى النبي أرميا من الملاحقة التي قام بها الإقطاعيون المحتدمون غيظاً من فضائحهم، وباتفاق سري مع النبي أرميا حاول الملك صدقيا حمايته من التنكيل ولكن أرميا ذاته جلب سوءاً لنفسه في فناء بيت الحرس حيث خبأه تحت ستار الاعتقال أجرى النبي علناً معاملات قانونية مع ابن عمه لشراء قطعة الأرض الواقعة في قرية عناثوث المحتلة من قبل البابليين مسلماً الوثائق لكاتبه باروخ، ثم أعلن أرميا على مسمع الناس «هكذا قال رب الصباؤوت[أ] «رب الجنود» إله إسرائيل خذ هذين الصكين صك الشراء هذا والصك المفتوح هذا وأجعلهما في إناء من خزف لكي يبقيا أياماً كثيرة لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل سيشترون بعد بيوتاً وحقولاً وكروماً في هذه الأرض - أرميا ٣٢: ١٤-١٥».

ومرة أخرى كانت مظاهرة علنية ضد الحرب والرؤساء الذين غامروا بها وفهم كل الشهود «الحاضرين» فكرة أرميا جيداً: إن مصير الشعب ومصير الرؤساء

أ- الصباؤوت العبرية = الجنود: نعت إله اليهود يهوه «يهوه صاؤث» رب الجنود.

ليس هو بذاته - واحداً - فالرؤساء من أجل أعمالهم يتحملون العقاب ولكن الشعب لا يموت ويحيا من جديد بسلام والزعماء ليس باطلاً رأوا في أرميا اندحارياً داعياً إلى وقف المقاومة التي لا معنى لها والاستسلام لنبوخذ نصر.

واضطر الملك صدقيا إلى تسليم النبي للتنكيل، فألقوا أرميا في الجب الذي لم يكن فيه ماء بل وحل لكي يموت جوعاً «بيت الجوع» إلا أن عبيد الملك أخرجوه ليلاً ووضعوه من جديد في فناء دار السجن. وفي حديث سرى اتفق أرميا والملك على الاستسلام للكلدانيين لكي تسلم أورشليم من الفناء ولكن صدقيا خاف من اتباع نصيحته ولما علم الرؤساء بذلك الحديث نظموا استجواباً للنبي فأجاب أرميا بحسب إيعاز صدقيا بأنه تضرع إليه لكي لا يرده إلى الزنزانة فصدقه الرؤساء وتركوه لشأنه.

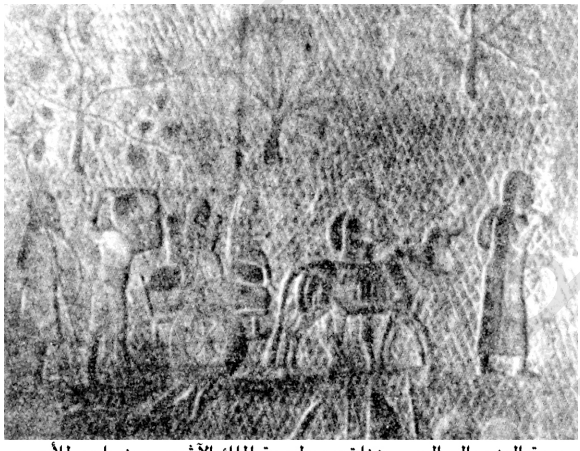

سوق اليهود إلى السبي هنا تصوير لسوق الملك الآشوري سنحاريب للأسرى من مدينة لخيش اليهودية في عام ٧٠١ ق.م وهكذا سبق اليهود للسبي إلى بابل في عام ٥٩٧ وعام ٥٩٦ ق.م.

وفي ١٨ تموز عام ٥٨٦ ق.م فتحت الأكباش ثغرة في السور واندفع البابليون في متأخر من الليل إلى داخل أورشليم وكان بين الجنرالات الذين استولوا على المدينة نرجال - شار - رو - اوتسور ملك بابل المقبل.

وتحت ستار الليل هرب الملك صدقيا وعائلته مع مفرزة من الجند من مدخل سري من أورشليم، ولكن سرعان ما اكتشف البابليون الهروب ونظموا مطاردة وراءه وأدركوا صدقيا وحاشيته بالقرب من أريحا وأخذ أسيراً وأوصلوه إلى ربلة مقر القيادة العامة لملك بابل وبأمر نبوخذ نصر قتلوا أبناءه وجميع الأمراء الأسرى اليهود على مرأى منه.

وصدقيا نفسه أعموا عينيه وقيدوه بسلاسل نحاس وأرسلوه إلى بابل حيث أمضى حياته في «السجن» الزنزانة وبعد شهرين من ذلك في ١٧ آب عام ٥٨٦ ق.م حضر الوجيه البابلي نبوزرادان رئيس الحرس الشخصي للملك بأمر من نبوخذ نصر لتدمير المدينة فاحرق البابليون جميع المباني في أورشليم بما فيها القصر والهيكل ونقضوا أسوراها وصارت جميع آنية الهيكل الذهبية والفضية والنحاسية غنائم للمنتصر. أما بقية السكان اليهود الذين نجوا من الحصار والاقتحام ومجموعهم

٨٣٢ نفساً دون حساب نسائهم وأولادهم والعبيد ساقهم نبوزرادان إلى السبي البابلي وبقي في اليهودية فقط الفقراء وأعطيت لهم الكروم والبساتين والحقول وخضعت اليهودية للجزية وصارت إقليماً بابلياً عادياً وعين اليهودي جدليا عاملاً «وكيلاً» عليها. وأمر نبوخذ نصر البحث عن أرميا ومكافأته معتبراً إياه أدى مآثر غالية لبابل. ووجد نبوزرادان النبي بين الأسرى فنزع عنه السلاسل وخيره إما الرحيل إلى بابل أو البقاء في الوطن ففضل أرميا الوطن فأهدوه بسخاء وأعطوه زاداً وأطلقوا سراحه.

ومع ذلك ما إن استعادت البلاد حياتها الهادئة وجنى المزارعون محاصيل الثمار الوفيرة حتى قتل الزعماء الفارون من الأسر الوكيل جدليا.

وفي الوقت ذاته سارت الحرب بين الميديين والليديين. وكان النضال فيها سجالاً للسنة السادسة وكلا الطرفين لم يحرزا النصر وكانا متعبين. وفي ٢٨ أيار عام ٥٨٥ ق.م بدأت بين الأعداء معارك متتالية وانتهت بشكل غير منتظر ففي ذلك اليوم حدث كسوف شمسي كامل وأظلمت الشمس في بادئ الأمر وبعد ذلك حل الظلام وفي لمح البصر نسي الميديون والليديون عداواتهم وألقوا سلاحهم مذعورين.

وحالما سطعت الشمس في السماء ثانية بعد مضي بعض الوقت قرروا إلى متى سيتوقفون عن إغضاب الآلهة وأسرعوا إلى عقد الصلح. ووضعوا معاهدة سلمية بوساطة فعالة من سفينسيا ملك ليديا ونابونيد سفير بابل ونصت شروطها على تقسيم «التركة السكيثية» في آسيا الصغرى فأخذ الميديون كبادوكيه والليديون فريجيا وصارت الحدود بين الدولتين نهر غاليس وأعطوا أقاليم كاتاؤنية وميليتين وكوماجبنا إلى كيليكية وعزز السلام بزواج الأمير استياع بن كياكسار بالأميرة الليدية إيرينيس ابنة آلياتا.[8]

وهكذا انتهت الحرب من أجل «التركة السكيثية» ولكن استمرت الأعمال الحربية في ما وراء النهر وانهمك نبوخذ نصر هنا بإزالة الدول الصغيرة التي كانت دوماً سنداً لمصر، فاحتل صيدون «صيدا» المدينة الفينيقية وسحق دول آدوم في جنوب فلسطين واستمرت فقط صور بالمقاومة العنيدة.

وصور هي المدينة - الدولة الفينيقية الأعظم أهمية وتعتبر بحق القلعة الأقوى في العالم فالقسم القديم من المدينة «أوشو» كان واقعاً على اليابسة وعلى الجزيرة الصغيرة القريبة تقع القلعة التي هي صور الحقيقية.

وهكذا تغنى النبي حزقيال بثروة ومجد صور «أيتها الساكنة عند مدخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة، أنتِ قلتِ أنا كاملة الجمال، تخومك في قلب البحور، بناؤوك أتمّوا جمالك، عملوا كل ألواحك من سرو سنير[أ] أخذوا أرزاً من لبنان

أ- جبل حرمون - الشيخ - المترجم

يصنعونه لك سواري، صنعوا من بلوط باشان[أ] مجاذيفك صنعوا مقاعدك من عاج مطعم في البتس من جزائر كتيم[ب]. كتان مطرز من مصر هو شراعك ليكون لك راية، الإسمانجوني[ت] والأرجوان من جزائر اليشه[ث] كانا غطاءك، أهل صيدون وأرواد كانوا ملاحيك، حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك، شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلاّفوك[ج]. جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك».

وخدم في قوات صور مرتزقة من مصر وليديا وليبيا والعربية لمعت تروسهم وخوذهم على أبراجها وعلقوا كناناتهم على أسوارها وهم صيروا بهاء صور.

«ترشيش»[ح] تاجرتك بكثرة كل غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك. ويتابع حزقيال: «ياوان وتوبال وماشك»[خ] هم تجارك بنفوس وبآنية النحاس أقاموا تجارتك ومن بيت توجرمه «ميليتين» بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك. بنو «ددان تجارك[د] جزائر كثيرة تجار يدكِ أدوا هديتك قروناً من العاج والأبنوس، آرام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا بأسواقك بالبهرمان[ذ] والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت. يهوذا وأرض إسرائيل هم تجارك تاجروا في سوقك بحنطة منيت وحلاوي وعسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غنى بخمر حلبون والصوف الأبيض».

وفي صور تعاملوا بالحديد المشغول من ياوان وسليخة وقصب الذريرة كانت في أسواقها وددان تاجرتها بطنافس للركوب، العرب وكل رؤساء قيدارهم تجار يدك. بالخرفان والكباش والأعتدة وتجار شبأ ورعمة هم تجارك بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك حران وكنه وعدن وتجار شبأ وآشور وكلمد تجارك هؤلاء تجارك بنفائس بأردية اسمانجونية مطرزة وأصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرز من بين بضائعك.

أ- أرض حوران - المترجم

ب- كتيم = يرجح أنها قبرص وقد قال البعض إنها كانت اسماً يطلق على الجزائر والشواطئ غربي فلسطين كما كان يطلق في عصر المكابيين على مقدونيا. ومن مادة قبرس في معجم الكتاب المقدس الصفحة ٧١٤ لم يرد اسم قبرص في العهد القديم بل دعيت كتيم على اسم مدينة فيها هي كيتون - المترجم.

ت- حجر كريم يشبه الياقوت لونه أزرق ضارب إلى الحمرة - المترجم

ث- جزء من جزيرة قبرص كان يؤتى منه بالأرجوان - المترجم

ج- عمال القلافة الذين يسدون الشقوق والثقوب بالسفن - عمال العزل - المترجم

ح- ترشيش= اسم فينيقي معناه «معمل للتكرير» وهي قرطاجنة الفينيقية في تونس أولاً وترتيسوس بأسبانيا ثانياً وكارتاخينا بأمريكا اللاتينية ثالثا - المترجم».

خ- ياوان = إيونيا. توبال = كبادوكيا. ماشك = فريجيا وكلها ولايات في آسيا الوسطى وغيونيا باليونان - المترجم.

د- ددان = اسم لشعب كوشي ربما سكنوا بالقرب من رعمة في جنوب الجزيرة العربية وكانوا شعباً تجارياً من بلاد العرب يقطنون جنوبي الآدومين ولا يزال الاسم باقياً في ديدان وهي مكان يقع إلى الجنوب الغربي من «تيماء» واسمها الحديث «العلا» في وادي القرى شمال الحجاز.. الخ راجع معجم الكتاب المقدس الصفحة ٣٧٠- المترجم.

ذ- بهرمان = حجر كريم لونه أحمر وبعضهم يقولون إن الكلمة العبرية تعني الزمرد - المترجم.

وامتدت تجارة صور إلى ترشيش شبه الأسطورية في أسبانيا التي تستحم بأمواج المحيط الأطلسي[أ][9].

نعم كانت صور مدينة غنية مجيدة للغاية في البحر ولم يستطع أحد من الفاتحين أن يستولي عليها الآن هذه هي المهمة التي صمم نبوخذ نصر على القيام بها.

وابتدأ حصار صور في ١٣ نيسان عام ٥٨٧ ق.م واستمر ١٣ عاماً «حتى عام ٥٧٥ ق.م» واستولى البابليون بسهولة على قسم المدينة الذي على اليابسة ولكن كانوا عاجزين عن تدمير القلعة التي على الجزيرة ولم يكن عندهم الأسطول القوي الكافي القادر على محاصرة صور من البحر وبقي فقط الاتكال على إنهاك الصوريين. وجرى حصار المدينة من البر بإصرار لا مثيل له من نبوخذ نصر ملك بابل الذي أعيا قواته بأعمال كبيرة شديدة بالقرب من صور: «كل رأس قَرِعٌ وكل كتف تجردت ولم تكن له ولا لجيشه أجرة من صور لأجل خدمته التي خدم بها عليها»[10] هكذا تحدث النبي حزقيال بسخرية ظاهرة عن حصار صور.

وصمدت صور بثبات بغض النظر عن الضرر الهائل الذي سببه الحصار لتجارتها وزيادة على ذلك حافظت باستمرار على الاتصال بحراً مع مصر وتلقت المساعدة من هناك.

ونجح نبوخذ نصر أخيراً بإنهاء الحرب مع مصر في عام ٥٨٢ ق.م حيث حطم البابليون دولة العمونيين «عمون» وموآب الدولة الأخيرة الحليفة التي يمكن أن تعتمد عليها مصر عبر الأردن ثم ظهروا مباشرة على حدودها «أي مصر» ويصعب الحكم حول اعتداء البابليين على وادي النيل أم لا؟ ومهما يكن فقد عقد الصلح بين مصر وبابل في عام ٥٨٢ ق.م وسلم المصريون للزعيم البابلي نبوزرادان ذاته الذي دمر أورشليم اليهود اللاجئون «المختبئون» في بلادهم وعددهم ٧٤٥ نسمة والآن صار كل الشعب اليهودي في السبي البابلي وتوطد السلام بين مصر وبابل بزواج نبوخذ نصر ونيتاكرت «نيتوكريس» ابنة الملك ولعبت أفكار الأخيرة دوراً لا بأس به في تاريخ بابل.

وصارت صور في عزلة ولكن فقط بعد سنوات استسلمت لنبوخذ نصر الذي أبقى على استقلالها الذاتي ولم يترك على أسوارها حامية بابلية ولكنه سُلِّم الرهائن واتخذ حكاماً بشخص أولئك القضاة وأولئك الملوك الذين أرسلوا من بابل.[11]

واللحن الأخير للمنافسة البابلية - المصرية مرتبط بالحرب الأهلية في مصر في السنوات «٥٧٠-٥٦٧ ق.م» حيث ثار المصريون ضد الفرعون إبري «إب -

أ- يتحدث المؤلف عن قرطاجة الأسبانية ونسي قرطاجة الفينيقية في شمال إفريقيا تونس التي هي الأم ومنها نشأت وعلى اسمها بقية المدن التي تحمل الاسم نفسه - المترجم

رع» نسيب نبوخذ نصر المعتمد على المرتزقة الأيونيين والكاريين معلنين أماسيس «يحمس» أحد القادة العسكريين المصريين فرعوناً عليهم.

وفي عام ٦٧/٥٦٨ ق.م تدخل نبوخذ نصر في مصر وجاب كل البلاد حتى وصل إلى طيبة إلا أنه لم يعتزم إخضاع مصر، ولما تأكد أن الفرعون أب - رع ليس في وسعه الاحتفاظ بالعرش عاد إلى بابل وأحرز أماسيس «يحمس» النصر على أب - رع وأقام علاقات سليمة متينة وصار كل ما وراء النهر لبابليين وصارت جزيرة قبرص من حصة المصريين.[12]

وكانت نتيجة السنوات العديدة من الحروب الدامية التي قام بها نابو بلاسر ونبوخذ نصر الثاني هي قيام الإمبراطورية البابلية الحديثة التي دخل في قوامها تقريباً كل بلاد الهلال الخصيب وهذه الإمبراطورية قامت بقوة السلاح ولكن مؤسسها نبوخذ نصر لم ينخدع أبداً بشأن إمكانات بابل فبابل التي خرجت منتصرة في الحروب بفضل الاتحاد مع ميديا وعرف نبوخذ نصر أن بابل هي الشريك الأضعف في هذا الاتحاد. وإن ميديا عاجلاً أو آجلاً سوف تغتنم هذا وتوجه ضربتها إليها. ولذلك كان الهدف الرئيس لسياسة نبوخذ نصر الخارجية قائماً على الوصول إلى سلام قوي «وطيد» في الشرق الأدنى.

وعقدت معاهدة سليمة في عام ٥٨٥ ق.م بين ميديا وليديا بوساطة فعالة من بابل وأقامتا علاقات سلمية وحسن جوار مع بابل ومصر. وكانت تلك نجاحات دبلوماسية كبيرة لنبوخذ نصر.

وتشكل نظام توازن عالمي بين الدول العظيمة الأربع ميديا وليديا وبابل ومصر وكان وجود هذا النظام من مصلحة بابل قبل كل شيء لأنها كانت مهددة بالدرجة الأولى بالعدوان من جهة ميديا الأقوى في دول الشرق الأدنى.

والآن صار عند نبوخذ نصر القدرة على مواجهة التهديد الميدي باتحاده مع ليديا ومصر اللتين كانتا أيضاً مُهتمّتين بإيقاف التوسع الميدي.

وفي النصف الثاني من زمن ملكية نبوخذ نصر الثاني أصبح التهديد الميدي الخطر الرئيس لبابل وفي الحقيقة تعززت علاقات الصداقة مع ميديا غير أن ذلك لم يمنع نبوخذ نصر من تحصين بابل وحدود دولته بحماس.

فهناك عند سيبار وأوبيسا حيث البرزخ بين الفرات والدجلة هو الأضيق أنشأ خطاً تحصينياً قوياً أساسه عبارة عن خندق متصل وسترة مع أبراج مقامة عليها وأطلق على خط التحصينات هذا اسم الجدار الميدي لأنه كان عليه أن يعترض سبيل الهجوم المعادي المفترض «المحتمل» على بابل.[13]

وكيف تلخص نتائج سياسته الخارجية؟ يتحدث عن ذلك نبوخذ نصر في إحدى كتاباته «بمساعدة الآلهة العظيمة، من البلاد البعيدة، والجبال البعيدة، من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى، وطرق الأشرار وسبل الطرشان حيث تتجمد الخطى ولا موطئ لقدم. من المسالك الوعرة وطرق العطش جئت أنا وأبدت العصاة، وأسرت الأعداء وثبت النظام في البلاد، وأمنت للشعب الازدهار واستأصلت الشرار والأرديا‌ء من بين الشعب، ذهباً وفضةً، وأحجاراً كريمة وأخشاباً نادرة وكل ما هو غالٍ من الثمار الذهبية «اليانعة» ومحاصيل الجبال ونتاج البحر والعديد العديد من الهدايا الوافرة في مدينتي بابل أنا أقدمها أمام الآلهة»[14].

وهذا تقييم متواضع جداً لنشاطات قام بها جندي مجبول من قمة رأسه إلى أخمص قدمه بالحرب. وأمضى حياته كلها تقريباً في الحملات والحروب.

وبقيت إلى حد ما كمية من كتابات نبوخذ نصر الثاني ولكن عبثاً نجد فيها وصفاً للحملات العسكرية والانتصارات واقتحام المدن وتعداد الغنائم والتنكيل بالأسرى. وهذا يعني كل ما هو مميز بدرجةٍ ما لكتابات الملوك الآشوريين. ففي أطلال القصور البابلية ما وجد حتى ولا نقش واحد ولا رسم للمشاهد الحربية وكتابات نبوخذ نصر الثاني بالكاد لا تتحدث عن الحرب.

وإنما يدور الحديث فقط عن عبادة الآلهة والنشاط المعماري..

ولو نسقنا فقط كتابات نبوخذ نصر الثاني نستطيع أن نخرج بنتيجة واحدة ليس غير وهي أن هذا الملك كان العاهل الأكثر اتزاناً في كل التاريخ القديم وغير مبالٍ على الإطلاق بالمجد العسكري.

والأمر هنا يتعلق ليس فقط بمقدار التواضع الشخصي لنبوخذ نصر الثاني بل بطبيعة المجتمع البابلي الحديث وحتى بابل في زمن الاضطراب لم يتفاخروا بالمآثر العسكرية ففي ذلك المجتمع قيموا لا المآثر في ميدان ولا شيء آخر إلا مقدار ملكيات الأرض وعدد العبيد. ودور السكن ومحتويات الخزائن والشطارة في الأعمال المالية والتجارية وبكلمة واحدة - الثروة - وعن هذا المجتمع عينه وعن أخلاقه وحياته اليومية سيدور الحديث في الفصول التالية.